(٢)
على شواطئ
العلم

obeikandi.com

بعد أن أبحرنا إلى شواطىء الفكر والفلسفة، نواصل رحلتنا إلى آفاق العلم.. هذا الذى يبحث فى المجهول بحثا عن الحقيقة.. ومن خلال هذا العلم سوف نرى حقائق مذهلة حول حقائق هذا الكون.. والتى تشير كل الدلائل إلى عظمة الخالق الأعظم..

الإنسان دائم البحث عن الحقيقة..

والحقيقة شىء عزيز المنال..

نحن نقترب من الحقيقة، أو نصطلح على شىء نقول عنه إنه الحقيقة ولكن كُنْه الحقيقة نفسها أمر صعب..

فأنت عندما تنظر إلى سمكة فى الماء.. فلن تستطيع أن تحدد مكانها بالضبط.. ولكن تعرفه بالتقريب.

وإذا كانت الفلسفة قد بدأت بالتأمل.. عندما لفت نظر الإنسان حقيقة الموت.. عندما رأى الإنسان مَنْ يموت.. وكيف يفارق الحياة.. فاندهش ومن هذه الدهشة حاول أن يعرف ما هو الموت؟ وما وراء هذا الموت؟ وهل يمكن لهذا الإنسان الذى كان يملأ الدنيا حركة وحياة، أن ينتهى إلى سكون وعدم؟

وبدأ التفكير الإنسانى فى الحياة.. وما وراء الحياة؟ والموت وما وراء الموت؟.

* * *

ولكن الفلسفة وإن كانت قد فتحت الآفاق أمام الذهن الإنسانى أن يتأمل ويتعمق فى الأمور والأشياء، إلا أنها عجزت تماما عن الوصول إلى الحقيقة.. إنها تطرح علامات استفهام.. وقد تكون الإجابات علامات استفهام أيضا!. ولا أريد أن أردد القول الساخر الذى كنا نسمعه عندما ندرس الفلسفة فى الجامعة.. أنها أشبه بمن يبحث عن قطة سوداء فى حجرة مظلمة!!

صحيح أن الفلسفة هى إحدى مفاخر العقل الإنسانى الذى جعل الإنسان يدخل دروبا مختلفة بجسارة ليعرف.. وأنها أقحمت العقل الإنسانى بجسارة فى مجالات المعرفة حتى لايخضع لأوهام الخرافات والأساطير.. وأن يميز الحق من الباطل.. والهدى من الضلال.. وأن يتجرأ إلى اقتحام ميادين ما وراء الطبيعة.. وما وراء الحس، بحثا عن الله ودلائل وجوده، وأنه هو المطلق.. الذى لايحده زمان ولامكان.. وأن قدراته وكماله بلا حدود.. ولكنها عجزت عن الوصول إلى اليقين الحقيقى الذى لم نعرفه إلا من خلال الوحى.. لأن العقل يخطىء حينا، ويصيب أحيانا أخرى. ولكن الوحى لايخطىء لأنه معصوم.. وهذا ما عرفته الإنسانية عن طريق أنبياء الله ورسله من خلال ما تنزل عليهم من وحى السماء.. فى كتبه المنزلة.. كما فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

وفى قوله تعالى:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

فالفلسفة لها براهينها العقلية والحدسية والإلهامية التى دفعت بالفكر الإنسانى إلى الأمام بلاشك، ولكنها عجزت أن تصل بالإنسان إلى شواطىء اليقين.

* * *

و . . قد اتجهت الإنسانية إلى العلم عندما انجلت أهميته فى حياة الإنسان العملية والمعرفية. . وسيلة العلم هى التجربة، استخدام العلوم الرياضية وسيلة لهذا التقدم العلمى. . هذا التقدم الذى حاول أن يعرف أسرار المادة. . وأسرار الخلية الحية. . وأسرار الصحة والمرض. . وأسرار الكائنات الحية على الأرض وفى أعماق البحار والمحيطات، كما حاول أن يعرف أسرار الكون الفسيح عندما حاول غزو الفضاء ومعرفة شىء عن هذا الكون الذى لايمكن تصور إتساعه حتى بالخيال. . فنحن على أرضنا كوكب صغير يدور حول الشمس، والشمس شىء ضئيل بالنسبة للمجرة، والمجرات تملأ فضاء كوننا والتى تقدر المسافات بينها بملايين السنين الضوئية. . وما عرفه الإنسان فى كل هذه الميادين جد ضئيل!

* * *

ورغم التقدم المذهل للعلم والتكنولوجيا فى عصرنا الحديث، والذى يفوق فى اكتشافاته فى العقود الثلاثة الأخيرة فقط ما يوازى تقدم البشرية فى كل عصورها.. ومازال العلم يقتحم مجالات كثيرة ولا أحد يعلم إلا الله مدى ما سيصل إليه من كشوف علمية تغير موازين الرؤية للحياة.. ومع ذلك فإن العلماء يعرفون تمام المعرفة أنهم مازالوا على شاطىء المحيط العلمى لايعرفون إلا بعض الأصداف أما اللآلىء فتقبع فى الأعماق!

لقد تأملت فى العطاء العلمى وما قدمه للإنسان من فوائد فى حياته.. وعلاقاته بالآخرين.. والالتقاء (بالآخر) حتى لو كان فى أقصى الأرض.. وثورة المعلومات والاتصالات كل ذلك تقدم حضارى وعلمى مذهل.. ولكن كل هذه الإنجازات العلمية لاتهب الإنسان اليقين.. الإيمان الحقيقى.. الاعتقاد الصحيح.. لاينفذ إلى أعماق الإنسان فيهبه الراحة والاستقرار والأمن والأمان.. إنه مازال عاجزا عن أن يهب الإنسان إلى السعادة.. بل إن الإحصائيات تقول أن أرقى الدول تقدماً فى المجال العلمى والاقتصادى بها أكبر نسب الانتحار.. أى إن المال.. والعلم لم يحققا السعادة للإنسان، وربما يكون العكس، لأن الترف مفسد.. بل أن الترف هو الذى يؤدى إلى انهيار الحضارات وتفككها، وغروبها فى النهاية.. هذا الكلام ليس من عندى ولكن هو كلام كبار المؤرخين من أمثال توينبى وغيره!

وإذا كان الإنسان قد عجز عن فهم نفسه، فكيف يتسنى له معرفة الكون من حوله.. إن كل ما قيل من نظريات حول طبيعة الحياة.. هو مجرد نظريات لم تصل إلى درجة اليقين، وكل ما قيل عن نشأة الكون، والانفجار العظيم الذى حدث منذ مالا يحصى من بلايين السنين، والذى تسبب عنه نشأة هذا الكون بمجراته ونجومه وكواكبه، مجرد حدس علمى، ولكن هذه النظريات على الأقل تثبت كَمْ أن هذا الكون الرائع فى تكوينه وخلقه أن وراءه قوة عظمى خلقته، فليس من المعقول أو المنطقى، أن يكون هذا الانفجار العظيم الذى تحدث عنه علماء الفلك الذى بدأ بكُرة صغيرة مشتعلة وعلى درجة حرارة عالية جدا، وبانفجارها تكوّن هذا الكون العظيم.. ليس من المعقول أن هذه الكرة خلقت نفسها بنفسها، وفجّرت نفسها بنفسها لينشأ هذا الكون.. !

* * *

ولنقف عند كلام أحد كبار علماء هذا العصر (فرانسيس هارى كوميتون كريك) وهو عالم بيولوجى فيزيائى بريطانى نال عام ١٩٦٢ جائزة نوبل فى كتابه (طبيعة الحياة) الذى ترجمه الدكتور أحمد مستجير.. فهو يتحدث فى أحد فصوله عن المهرجان الكونى يرى أنه إذا كان من الصعب أن نتفهم نشأة الحياة لأنها حدثت منذ زمن

بعيد جدا، فالمفروض أن نشأة هذا الكون - التى سبقتها مؤكدا بوقت طويل - لابد أن تكون أكثر تعذراً على الفهم. . وهذا ليس صحيحاً تماماً، لأن التفاعلات اللازمة لبدء أى نظام حى هى مجموعة متشابكة محدودة من كوكبة كبيرة غيرها من التفاعلات الممكنة فى بيئة لامتجانسة لحد بعيد، أما فى المراحل الأولى لنشأة الكون عند الانفجار الهائل فقد كانت الأشياء كلها وثيقة الاختلاط حتى ليمكن القول بأن أهم ما كان يسود العملية عندئذ هو الخطوط العريضة للتفاعلات، وبذا يفترض أن يكون تفهمها أقرب منالا.

وتركزت المناقشات الحديثة عن أصل الكون - كلها تقريبا - على نظرية الانفجار الهائل Big Bang.

وهذه تفترض أنه فى المراحل الأولى التى يمكننا التفكير فيها تفكيرا مجديا، قد تكون مادة الكون كلها تشغل حيزا صغيرا بالفعل، وكانت على درجة عالية جدا، وقد كانت هذه الكرة الملتهبة البدائية تتمدد بسرعة كبيرة، وكانت تبرد أثناء تمددها وقد كتب (ستيفن واينبرج) كتاباً ممتازاً يشرح فيه للقارىء العام أنواع التفاعلات التى يرجع حدوثها فى الدقائق الثلاث الأولى.

ويقول المؤلف أيضا:

وتنبنى الصورة من معارفنا الحديثة عن الجسيمات الأساسية للمادة والإشعاع، بجانب البعض القليل من الحقائق التجريبية، مثل

خلفية الإشعاع الكونى الذى ينتشر الآن عبر الفضاء كله - همس الخلفية الخافت الذى يسمع بالكاد بالتلسكوبات اللاسلكية - ومثل هذا التكوين الخيالى لايكون بالضرورة مأمونا تماما.. ويعترف واينبرج بشعور بالاصطناع يخامره أحياناً عند الكتابة عنه، أما أهم الحقائق الأخرى المعروفة التى نحتاج إليها لبناء النظرية فهى تمدد الكون الذى تبينه الإزاحة الحمراء الشهيرة، وكذا ذلك التيقن الهائل فى كوننا اليوم من جسيمات الإشعاع الكهرومغناطيسى (الفوتونات) مقارنة بجسيمات المادة (الباريونات Baryons) تبلغ النسبة 10^{9} (يعنى عشرة أمامها تسعة أصفار).. أى بليون إلى واحد، بجانب الندرة النسبية للعناصر الثقيلة، فحتى فى كوننا الحالى سنجد أن ٩٩٪ من الذرات موجودة فى صورة هيدروجين وهيليوم، أخف عنصرين، والأول منهما أكثر شيوعا.. ومن كل هذه الحقائق تمكن الفيزيائيون النظريون من أن يستنبطوا أن يعد واحد من مائة من أول ثانية (وهذا أمر أبعد فى الشك).

أصبحت الكرة الملتهبة مزيجا متشابكا من الإشعاع والمادة يتفاعل بسرعة وبعنف فى درجة حرارة رهيبة تبلغ نحو ١٠ وأمامها ١١ صفر درجة ويتحدد بسرعة بالغة.

ويمضى المؤلف يحدثنا عن تكوين الكون عقب هذا الانفجار العظيم.. وكيف تكونت المجرات والنجوم والكواكب وكيف أن العالم يتمدد ويتسع.

ولكن المؤلف يتوقف عند نقطة بالغة الأهمية عندما يرى أن هذا الكون مصيره الزوال . . كيف؟

يقول المؤلف :

وبسبب حدوث هذا الانفجار الكونى الأول استمر العالم منذ ذلك الوقت فى الاتساع، أما استمراره فى التمدد إلى ما لانهاية أو بتباطئه حتى يتوقف ويرتد على نفسه، فيعتمد على ضخامته نفسها، فكما يسقط الحجر مرتدا إلى الأرض إذا أُلقى به عاليا فى الهواء، إلا إذا دفع به فى سرعة يهرب بها تماما من الجاذبية، فكذلك الكون، سيظل يتسع إلا إذا كانت كتلته من الضخامة بحيث توقف الجاذبية هذا التمدد فى نهاية الأمر وتعكسه، فإذا كان الأمر كذلك، ففى وقت ما فى المستقبل البعيد سينهار على نفسه فى واقعة مأساوية أخرى، كان من المسلم به أن الكثافة المقدرة للكون أصغر من أن تسمح بهذا، والكثافة الحرجة تعادل نحو ثلاث ذرات هيدروجين فى كل لتر - من الفراغ - غير أنه يظن الآن أن هذه الجسيمات الصغيرة عديمة الشحنة المسماة (النيوترينو) والمنتشرة فى الكون بأسره، والتى كان يظن سابقا أنها كالضوء بلا وزن، هذه الجسيمات ربما كانت لها كتلة محددة وإن كانت صغيرة جدا، فإذا كان الأمر كذلك فقد يكون بالكون من هذه الجسيمات ما يمنعه من التمدد إلى الأبد.

* * *

ويمضى المؤلف يحدثنا عن المسافات الشاسعة فى هذا الكون والذى لايمكن تصورها أو تخيلها بمقياس الخيال وما فيه من مجرات لايمكن تصور أعدادها وأحجامها، ثم يقول إن عمر الأرض وبقية النظام الشمسى نحو ٤,٥ بليون سنة، أما الزمن الذى مر منذ نشأة الكون فلا يمكن تحديده بنفس هذه الدرجة من الدقة، ولكنه على الأرجح يتراوح ما بين ٧ ، ١٥ بليون سنة، ولم يكن هناك تقريبا أى من العناصر الثقيلة عند بدء الكون، ولكن ظهرت منها كميات محسوسة بعد بليون سنة أو نحو ذلك!!

* * *

إن مجرد التأمل فيما أورده هذا المؤلف الحائز على جائزة نوبل، ترينا أن الإنسان.. مخلوق ضعيف.. يعيش على ذرة صغيرة فى ركن من أركان هذا الوجود.. وأن هذا الكون على عظمته، نهايته الفناء.. إنه سوف يموت.. سوف ينتهى.. شأنه شأن كل الكائنات التى نعرفها على أرضنا.. وأن نهاية الكون تعنى القيامة.. تعنى اليوم الآخر.. تعنى الخلود الذى حدثنا عنه خالق الكون ومبدعه -جل علاه- فيما نزل من كتب على رسله الكرام.

ومع ذلك يظل هذا الوجود وكيف تكون لغزا، فإذا كان الإسلام يحثنا على ضرورة العلم، وأن ننظر فى ملكوت السماوات والأرض، ونتأمل كتاب الوجود كما نتأمل فى كتاب الله.

يقول تعالى فى سورة يونس:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٥، ٦].

ويرى القرآن الكريم أن تأمل الوجود، والوعى بآيات الله فى كونه يعمق الإيمان فى القلوب، ويبث روح الطمأنينة فى الوجدان، ويغرس فى النفس عظمة الخالق الأعظم.

يقول تعالى فى سورة البقرة:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ومن هنا كانت أهمية العلم فى الإسلام، والعلم فى الإسلام ليس العلم بأمور الدين فقط، ولكن العلم بكل ما يعنيه العلم فى مختلف العلوم التى تعين الإنسان على فهم دينه.. وفهم نفسه.. وفهم الآخرين.. وفهم الكون الذى يعيش فيه.

قال تعالى:

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

والعلماء هم أخوف الناس من الله، وأخشاهم له.. لأنهم يعرفون ويقدرون مدى عظمة الله، وقدرته التى لانهاية لها.

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].

ومن هنا لم يكن عجيبا أن يقول محمد بن عبد الله أعظم رسل الله عليه الصلاة والسلام، والذى علمه ربه وأدبه فأحسن تأديبه.. يقول فى أحاديث كثيرة حاضا على العلم، ومعرفة أسرار الحياة:

- العلماء ورثة الأنبياء.

- لموت قبيلة، أيسر من موت عالم.

- يوزن يوم القيام مداد العلماء بدم الشهداء.

ومن أجمل الأحاديث التى قرأتها فى هذا الشأن قوله عليه الصلاة والسلام.

«حضور مجلس عالم، أفضل من صلاة ألف ركعة، وعيادة ألف مريض، وشهود ألف جنازة».

فقيل يارسول الله: ومن قراءة القرآن؟

فقال ﷺ :

- وهل ينفع القرآن إلا بالعلم.

* * *

العلم إذن يفسر ما يقع تحت الحواس.. ولايقنع إلا بالتجربة ويورد العلاقات بين الأسباب والمسببات، ويكتشف القوانين المادية.. ولكن يظل عاجزا عن تفسير الغاية من هذا الوجود ويظل عاجزا على اقتحام ما وراء الطبيعة.. ولا يفسر لنا الوجود والعدم.. والحياة والموت..

إن العلم يجد أمامه عشرات بل مئات من علامات الاستفهام.. ولاجواب.

هل الإنسان عندما يموت ويعود إلى التراب هل أصبح عدما؟

أين ذهب؟

وما مصير هذا الكائن الحى الذى كان يتحرك ويتكلم ويريد ولايريد، ويحقق أموراً، ويعجز عن تحقيق أمور أخرى.. أين ذهب.. هل أصبحت مجرد حفنة من تراب؟!!

* * *

العلم لايعرف كنه الروح.. هذا الشىء الذى يضىء فى الإنسان والكائنات الحية شعلة الحياة ولايمكن أن يكون الإنسان مجرد هذه الأعضاء المختلفة، وتلك الكتلة من الأعصاب، وهذا العدد من الغدد. وهذا المخ المسيطر على هذا الجسم.. هناك الروح التى تبعث فى كل هذه الحياة.. ولكن ما هى الروح؟

لاجواب!

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وتعود علامات الاستفهام من جديد.. تلك العلامات التى تقفز فى ذهن الإنسان وهو يقرأ ما يكتبه علماء الفلك عن نشأة الكون وتطوره.. هذا الكون الذى قالوا أنه خلق بعد الانفجار العظيم، والانفجار العظيم من كتلة بالغة الشحونة.. ضئيلة الحجم.. ولايجد الإنسان خروجا من هذه الحيرة إلا عندما يقرأ كتاب الله الموحى به إلى آخر رسل السماء.. وهو القرآن الكريم..

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ [الكهف: ٥١].

ويفسر هذه الآية الإمام ابن كثير بقوله:

يقول الله تعالى هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دون عبيد أمثالكم لايملكون شيئا، ولا أشهدتهم خلق السماوات والأرض، كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها وحدى، وليس معى فى ذلك شريك ولا وزير ولامشير ولا نظير كما قال: •

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

لهذا قال:

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١]. قال مالك: أعوانا

* * *

العلم إذن محدود..

يمكن عن طريقه أن نعرف حركة النجوم فى السماء.. وأن نعرف عن طريقه تركيب المادة.. ونعرف عن طريقه وظائف أعضاء الجسم.. ونعرف من خلاله أن هناك وحدة فى الخلق.. تدل على وحدة ما خلق الله.. وأن خالق هذه الأكوان بما فيها من كائنات -نعرفها ولانعرفها - خلق الكون بنظام تحكمه قوانين واحدة.. ولكن هذا العلم نفسه يعجز تماما عن فهم حقيقة الإنسان.. عن فهم جوهر الأشياء.. وأن هذا العلم يمكنه أن يفسر بعض الأمور، ويعجز عن تفسير الأمور الأخرى.

إن الإنسان فى تطوره يكتشف المزيد من عوالم المجهول الذى يحيط بنا، وهذه الاكتشافات نفسها لم تكن من اختراع الإنسان، فالإنسان عندما اكتشف قانون الجاذبية، كانت الجاذبية موجودة قبل هذا الاكتشاف.. و.. قس على ذلك كله ما نراه من تقدم وتطور ويبقى العلم عاجزا عن فهم الكثير.. عاجزا عن الوصول إلى كنه الأشياء.. إن العلم يقترب من ضفاف الحقيقة.. أما الحقيقة نفسها فشىء بعيد المنال.

أو على حد تعبير الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى كتابها (من عبقرية الإسلام) وهى تتحدث عن الإسلام والعلم، وأن الإنسان ما أوتى من العلم إلا قليلا ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. على حد تعبير القرآن الكريم فى سورة الإسراء.

ثم ماذا يعرف الناس عن الحياة، وما قبل الحياة وما بعد الحياة؟.

هل أوتوا من العلم إلا قليلا؟؟

وحتى هذا القليل قابل للشك والنفى والإثبات والتعديل والتغيير.

ولكن الإنسان المزهو بنفسه يحلو له أن يتعالم ويدعى التبحر فى المعرفة، ناسيا أن العلم وصل فى علمه إلى أن عمر كوكب الأرض ألفا مليون سنة وأن عمر البشرية من هذين الألفين إنما هو المليون الأخير، أى إن البشرية (وارد حديث) بلغة الموضة ترى ماذا يعرف المزهو بعلمه عن هذا المليون بله الألفى مليون الأولى.. ألا ليته يعرف.. لو عرف لأدرك حجم الكثير الذى ينقصه.. وهنا يحضرنا تساؤل الأستاذ العقاد عمن رأى أول فجر فى سماء الكون لاح!

كم شروقا لم نره؟

كم أصائل كم من الزهور نبتت؟

إن الأرض، ومن عليها، وما عليها، ليست إلا كوكبا فى المجموعة الشمسية وليست الأرض بأكبرها.

إن فى جسم إنسان واحد ملايين الخلايا الحية.. هل استطاع الإنسان أن يخلق خلية واحدة؟!

ويقول الدكتور مصطفى محمود فى كتابه (الله):

والعلم الحديث يعترف بحدوده، ويعترف بأن هناك مناطق من المعرفة محرمة عليه فهو بكل أدواته ووسائله لايستطيع أن يستكشف إلا الجانب الموضوعى من الحقيقة.

كل ما يمكن أن يكون موضوعاً للملاحظة والرصد، والحصر والاستقراء والتجربة يقع فى مجال العلم واختصاصه، ولكن الذات المفردة بحكم كونها ذاتية لايمكن أن تكون موضوعاً للملاحظة.. لايمكن أن توضع تحت ميكروسكوب ولا أن تقاس بالشبر ولا أن توزن بالجرام.

وكل ما نستطيع أن نعرفه عنها معلومات غير مباشرة عن أثرها فى الآخرين وعلى ما يبدو منها فى ظواهر السلوك وغالبا ما تكون هذه الظواهر السلوكية كاذبة ومفتعلة والإنسان إذا اتخذ من ذاته مادة للتأمل فإنها تبرد تحت مبضع التحليل والتشريح وتستحيل إلى جثة وتفقد ذاتيتها وتصبح شيئا آخر.

وإذا استرسل الإنسان فى استقصاء دوافعه وحوافزه الذاتية فإنه سوف يصل إلى نقطة تزول فيها الفواصل بين الأسباب والمسببات، وتصبح الذات نفسها سبباً ومسبباً فى عين الوقت.

وإذا كان الإنسان يعجز عن معرفة نفسه والإحاطة بها فكيف يدعى معرفة ذوات الآخرين أو ينكر ذات الله.

ويقول الدكتور مصطفى محمود أيضا محللا العجز الإنسانى أمام ظواهر الكون.. وأمام فهم ذاته فيقول:

القوانين العلمية لاتصدق على وجه الحكم، ولكن على وجه التقريب باعتبارها معدلات إحصائية لمجموعة كبيرة من الذرات والجزئيات المادية، فهى ترصد حركة تلك الذرات فى عمومها كجيش متحرك ولكن لا يخلو الأمر من عدة جنود يخرجون عن الصف فى كل مرة.

ولهذا لاتتكرر التجربة الواحدة فتأتى بنفس النتيجة أبدا.. إنما يظل هناك فارق طفيف جدا لايخضع للقانون.

وبهذه الروح المتواضعة ترك العلم الحديث مقعد الزهو القديم، وعرس التبجح والمكابرة، وتنازل عن اليقين مكتفيا بالاحتمال والترجيح والإمكان.. وبذلك فتح الباب للكلمة التى يقولها الدين وأفسح صورة لتأملات الصوفى وتعاليم النبى لم تعد مشاعر الصوفى وإلهاماته مسائل تقابل بالسخرية والإشاحة باليد.. إلا من الجهال ومحدودى الأفق.

وفتح العلم ذراعيه للدين بعد قطيعة مفتعلة استمرت سنين.

* * *

ها نحن قد طرقنا على أبواب الفكر والفلسفة، كما طرقنا محطة العلم.. وكل منهما يفضى بأن اليقين الدينى هو نقطة الارتكاز للمعرفة اليقينية لأن العقل يخطىء ويصيب.

ولأن المقاييس العلمية والنظريات العلمية دائمة التغير حتى تصل إلى اليقين العلمى.

ولكن ما جاء به وحى السماء لايخطىء لأن الوحى لايخطىء لأنه من عند الله، فالله هو الحقيقة العظمى.. هو مبدع الوجود وما فيه من كائنات، هو الأول الذى ليس قبله شىء، وهو الآخر الذى ليس بعده شىء.. هو الله - جل علاه - الذى يقول للشىء «كن فيكون».. له الأسماء الحسنى.. وإليه الرجعى.

إن التفيؤ بظلاله هو السعادة الأبدية.. هو الأمل المرتجى.. هو النعيم الدائم المقيم.. هو راحة النفس.. واستقرار الضمير.. وسعادة الوجدان.. هو التصالح مع النفس.. ومع الآخرين.. ومع الكون.

وكل ذلك حصيلة تبلورت فى الدين الخاتم فى الإسلام الذى جاء به آخر رسل السماء محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، الذى كان قرآنا يمشى على الأرض، لأن خلقه كان القرآن الكريم.

ولكن هل هناك علاقة بين العلم والدين؟

لنقف عند ما كتبه الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى

كتابه (الدين والوحى فى الإسلام) فهو يقدمه بما يقرره العلامة الفرنسى إميل بترو: «إن أمر العلاقة بين الدين والعلم، حين يراقب فى ثنايا التاريخ، يثير أشد العجب، فإنه على الرغم من تصالح الدين والعلم مرة بعد أخرى، وعلى الرغم من جهود أعاظم المفكرين التى بذلوها ملحين فى حل هذه المشاكل حلا عقليا، لم يبرح العلم والدين قائمين على قدم المساواة، ولم ينقطع بينهما صراع يريد كل منهما أن يدمر صاحبه لا أن يغلبه فحسب، على أن هذين النظامين لايزالان قائمين، ولم يكن مجديا أن تحاول العقائد الدينية تسخير العلم، فقد تحرر العلم من هذا الرق، وكأنما انعكست الآية منذ ذاك، وأخذ العلم ينذر بفناء الأديان، ولكن الأديان ظلت راسخة، وشهد بما فيها من قوة الحياة عنف الصراع».

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرزاق: ولسنا نريد أن نعرض لتاريخ العلاقات بين الدين والعلم على مر العصور، وما تناوبها من سلام وحرب، فإن ذلك بحث يطول، وليس مما قصدنا إليه فى هذا الكتاب، على أنه قد يكون غير خلو من المناسبة لغرضنا أن نذكر ما كتبه إميل بترو عن موقف العلم والدين فى أيامنا هذه إذ يقول:

«ليس التصادم الآن فيما يظهر بين الدين والعلم باعتبارهما مذهبين، بل التصادم أدنى أن يكون بين الروح العلمى والروح الدينى، فليس يعنى العلم أن يكون ما جاء فى الدين من عقائد متفقا

مع نتائج العلم، لأن الأساس الذى يعتمد عليه الدين فيما يجىء به يختلف عن الأساس الذى يعتمد عليه العلم، فالدين يقدم مسائله على أنها عقائد يجب الإيمان بها، أى يجب أن يتقيد بها العقل والوجدان، ويعرضها فى صورة تدل على اتصال الإنسان بنوع من الأشياء يعجز علمنا الطبيعى عن إدراكه، وفى ذلك ما يجعل العالم إن لم يرفض هذه المسائل نفسها يرفض الأسلوب الذى يسلكه المتدين فى الأخذ بها، والمتدين من ناحيته إذا وجد جميع عقائده وعواطفه وأحكامه العملية مفسرة بل مثبتة بالعلم يكون حينئذ أبعد شىء عن مسالمة العلم، فإن هذه الشئون إذا شرحت على هذا الوجه فقدت كل خواصها الدينية».

* * *

مهما يكن من شىء فالذى يبحر فى الدراسات العلمية التى تخدم الإنسان فى حياته، لاتتنافى مع الدين، لأن الإسلام بالذات يحض كما قلنا على العلم، وفى آيات القرآن الكريم الكثير من هذه الآيات التى تحثنا على طلب العلم والانتفاع به فى دنيانا، والرسول العظيم يقول لنا:

- أنتم أعلم بأمور دنياكم.

ومعرفة أمور الدنيا تتأتى عن طريق العلم بالحياة وما فيها، وكيف يتكيف الإنسان معها وبها.. فالحياة هى الجسر الذى نعيش

عليه بما يقدر إلينا من آجال.. وبعدها نغادرها إلى عالم أرحب وأوسع وأخلد.. عالم خالد.. هو الحياة الحقيقية.. هذا العالم يأخذنا بيدنا إلى رحابة الدين.. لأن حقائقه تأتى عن طريق الوحى.. والوحى لايأتى إلا بالحقائق لأنه لايخطىء والعمل من أجل هذه الحياة الخالدة هو أصل الوجود الإنسانى.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

* * *